المدرسة السلوكية:

رأينا أن علم النفس البنائي محدود بالخبرة "الباطنية" للإنسان ولو أنه يستخدم العالم الخارجي لأغراض التصنيف ، في حين يركز علم النفس الوظيفي في فهم العلاقة التكيفيه بين الشعور والبيئة. إلا أن هناك اتجاه ثالث يحصر نفسه في بحث العلاقة بين المثيرات المتنوعة التي يتلقاها الكائن الحي والاستجابات التي يقوم بها ، وذلك الاتجاه هو ما سمى بعلم النفس السلوكي.

ومع بداية السنوات الأولى من القرن العشرين كان علم النفس يسعى جاهداً لابتكار الطرق الموضوعية في دراسة موضوعاته وفي هذا الاتجاه ظهرت محاولات إبنجهاوس في ألمانيا ، وبافلوف في روسيا ، ولويد مورجان في انجلترا ، وثورنديك في أمريكا، وفي هذا الجو العام ظهرت السلوكية عام (١٩١٣) بقياده جون واطسن (١٩٧٨ – ١٩٥٨) ولم يكن ظهورها إلا نتيجة لمقومات عديدة تمتد جذورها إلى نظرية التطور عند تشارلز دارون ، (١٨٠٩ – ١٨٨٢) والاهتمام بدراسة سلوك الحيوان عند أدوارد لي ثورنديك وهو أحد تلاميذ وليم جيمس وواحد من علماء النفس المشهورين في الولايات المتحدة الأمريكية كما أنه أحد علماء النفس الذين شاركوا مع الرعيل الأول من علماء النفس

الأمريكيين أمثال جيمس ماكين كاتل ، وروبرت وودورث في جامعة كولومبيا ، وقد قام ثورنديك بتصميم أحدث المعامل التجريبية التي تستعمل لدراسة علم النفس الحيوان في جامعة كلارك الأمريكية في ذلك الوقت.

واستخدم ثورنديك العديد من الأجهزة مثل المتاهات والصناديق المشكلة التي عرفت باسمه فيما بعد ، كما تناولت تجاربه سلوك الكتاكيت والقرود والقطط وأيضاً التجريب على الإنسان. ويتضح من تفسيرات ثورنديك أنه سلوكي النزعة حيث تعتمد جميعها على أساس الارتباطات القائمة بين المثيرات – والاستجابات وتقويه هذه الارتباطات أثناء المحاولات المتكررة التي يبذلها الحيوان والتي يجد فيها قدراً من الارتياح أو الإثابة.

وفي نفس الوقت الذي توصل فيه ثورنديك إلى قوانينه الرئيسية في الولايات المتحدة ، يتوصل العالم الروسي ايفان بافلوف (١٨٤٩ – ١٩٣٦) Pavlov إلى فكره الفعل المنعكس الشرطي من تجاربه على الكلاب. فالفعل المنعكس اللعابي فعل طبيعي يكفي لاستثارته وجود الطعام في الفم ، وليس الجرس كمثير طبيعي لاستثارته. ولكن بتكرار دق الجرس مقترناً بتقديم الطعام للكلب وجد أن الجرس أصبح مثيراً

يسيل لعاب الكلب. ويسمى الفعل المنعكس "شرطياً" إذا ما حدثت الاستجابة لمثير غير المثير الطبيعي.

وهكذا يبدو بديهيا أن الحيوان لا يستطيع ملاحظه خبرته وتقديم تقريرعنها بالألفاظ للعلماء ،مما أضطر ثورنديك وبافلوف إلى أن يتحدثا عن التعلم بشكل موضوعي تستخدم فيه المصطلحات السلوكية مثل المثير والاستجابة ،في حين كان يوصف التعلم سابقاً بأنه ترابط ذاتي للمعاني. ونجاح طرق علم النفس الحيواني دفع بالعلماء إلى تطبيقها على الإنسان، مما دفع ماكس ماير أن يقول "إن دراسة علم النفس تكون أكثر موضوعية وأكثر علمية عندما يستبعد العالم نفسه عن الموضوع الذي يدرسه". وأشار إلى أن الاكتشافات العلمية ، الكبرى تحققت عندما حصر العلماء أنفسهم في وصف ما يمكنهم القيام به. فعندما نقيس نستخدم أعضاء الحس وأولها العينان وبذلك يصبح من الصعب على الإنسان أن يرى خبراته الشعورية ، وبالتالي فهو لن يتمكن من قياس شعوره مباشرة. ولكن الأمر يختلف في حالة الاستجابات كما يقول السلوكيون ، فإننا نستطيع قياس فعل العضلات والغدد وبعد ذلك تحديد دلالتها وتفسيرها.

وقد وجد "جون واطسون" – وهو السيكولوجي الذي أقترن اسمه أكثر من غيره بوجهه النظرة السلوكية – في كائنات ثورنديك وما كتبه بخترِيف وبافلوف في روسيا نموذجاً لما ينادي به عن موضوعية علم النفس ، هذه الموضوعية التي عبر عنها ماكس ماير بعبارته السابقة ومفتاح فكر واطسون يتلخص في العبارة التالية "إذا عرفت المثير يمكنك أن تتنبأ بالاستجابة" فسلوك الإنسان يحدث في عالم يسوده القانون والنظام. ومن المسلم به أن ما يفعله إنسان يمكن إرجاعه جزئياً إلى ظروف سابقة في حياته، ومن هذه المؤثرات السابقة يمكن التنبؤ ببعض السلوك الإنساني بدرجة كافية من الثقة وبالاعتماد على الفهم العام . نعم لا يمكن القول بأن هذه التنبؤات فوق الشبهات ولكن يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما.

وهكذا سوف نجد واطسون يقول " لو وضع تحت تصرفي أثنا عشر طفلا رضيعا يتمتعون بصحة جيده وبنية سليمة وطلب مني أن أعلمهم بالطريقة التي أعتقد أنها المثلى للتعلم فإنني قادر على تعليم أي من هؤلاء الأطفال بطريقتي هذه بحيث يصبح مختصاً في المجال الذي اختاره له كأن يكون طبيباً أو محامياً أو فناناً أو رجل أعمال بغض النظر

عن مواهبه أو اهتماماته أو قدرته أو مهنه آبائه وأجداده أو الجنس الذي ينتمي إليه ".

هذا الافتراض يجعلنا نضع واطسون بين أصحاب المذهب البيئي الكلاسيكي في التعليم وهذا الافتراض يؤكد شهرته كواحد من علماء النفس الذين يأخذون بنظرية الفردية الصارمة في التعلم.

ويمكن تلخيص المسلمات الأساسية التي تقوم عليها السلوكية فيما يلي:

١- علم النفس علم موضوعي يعتمد على البيانات التجريبية والدلالات التي يمكن ملاحظتها ، فإذا كان عالم النفس مهتماً بدراسة السلوك فهو يدرس ما يمكن ملاحظته من هذا السلوك.

٢- سلوك الإنسان عبارة عن تنظيمات من وحدات صغيرة يعبر عنها بالصيغة (م←←س) والارتباط بين المثير والاستجابة ارتباط فسيولوجي كيميائي.

٣- يسلم السلوكيون بحتمية حدوث الاستجابة إذا تعرض الإنسان لمثير ما ، وأن من الممكن التنبؤ بنوع الاستجابة التي سيثيرها مثير معين ، وكذلك من الممكن التعرف على المثيرات التي أدت إلى صدور استجابة ما.

٤- الاهتمام بتأثير البيئة ، على أساس أن العوامل البيئيـــة هـــي العوامل الفعالة في التأثير على السلوك. ولـــذلك لـــم يعطـــى واطسون أهمية تذكر للصفات والاستعدادات الوراثية للكائنات الحية عموماً ، على العكس من المؤثرات البيئية التي أعتبرها تتدخل في كل شيء وتغير من كل شيء.